تافيلالت
الدلالة والمجال

د. محمد امراني علوي

أستاذ التاريخ الوسيط الإسلامي
الكلية المتعددة التخصصات
الرشيدية – المملكة المغربية

مُلَخّص

اهتم عدد من الباحثين والدارسين بدراسة المجال الجغرافي لتافيلالت، مما أحدث نوعًا من الاضطراب لدى العديد منهم، نظرًا لتعدد الآراء حول هذه المنطقة من حيث الدلالة الخاصة لكلمة تافيلالت من جهة، والمجال الجغرافي لهذه المنطقة المتواجدة في الجنوب الشرقي للمملكة المغربية، ولذلك حاولت أن أسهم في هذا الموضوع من حيث تقديم عدد من الآراء الواردة في موضوع الدلالة اعتمادًا على الرواية الشفوية المحلية، أو من خلال استنتاجات بعض الرحالة والجغرافيين الذين شاهدوا المدينة، الشيء نفسه بالنسبة للمجال الجغرافي الذي عرف نوعًا من الامتداد والتقلص طيلة المرحلة الوسيطية وصولاً إلى الوقت الراهن، حيث انصهر المجال في مدينة الريصاني الحالية حسب عدد من الآراء، لكن حسب السياق التاريخي للكلمة والمجال فإنه كان يمتد في مراحل تاريخية إلى مجالات شاسعة شملت كل من فكيك ومنطقة جبل العياشي حسب بعض الوثائق المحلية والإشارات الواردة في عدد من المصادر التي أشار أصحابها ضمنيًا إلى تحديد المجال الفيلالي، سوءًا من خلال الوثائق التي يتم الاعتماد عليها، أو في إطار العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لعدد من المناطق مع منطقة تافيلالت، أو من خلال الرسائل المتبادلة بين بعض العلماء والزوايا المنتشرة في الجنوب الشرقي للمغرب، ولذلك تأتي هذه المساهمة المتواضعة لإثراء هذا النقاش العلمي حول تافيلالت من حيث الدلالة والمجال علها تقدم بعض الأفكار التي تسهم في توضيح ذلك.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ١٠ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ١٤ فبراير ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

سجلماسة، التاريخ المغربي، الصحراء الكبرى، الاستعمار الفرنسي، الدراسات الطبونيمية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد امراني علوي، "تافيلالت: الدلالة والمجال".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٤٩ - ٥٢.

مُقَدِّمَة

اهتمت المدرسة الأماكينية في إطار الدراسات الطبونيمية بعدد من المناطق والمدن باعتبارها ذات أهمية كبرى في التأثير على أحداث التاريخ، ومنها التاريخ المغربي، وبذلك رأت هذه المدرسة إمكانية الانطلاق من الجزء بهدف الوصول إلى الكل لكونها تساعد على الكشف عن العديد من المعطيات التاريخية المهمة، إلى جانب إحداث تراكم معرفي علمي يساعد على بلورة رؤية علمية ثقافية تسهم في تقديم معرفة تاريخية علمية عن هذه المواقع التاريخية، الشيء الذي ساهم في ظهور عدد من الدراسات لعدة مواقع ومدن لها أهميتها في تاريخ المغرب من قبيل فاس وباديتها، تاريخ مراكش من التأسيس إلى الحماية، تاريخ تطوان، سجلماسة وإقليمها... لكن هذه الأخيرة وحسب كتب التاريخ يطلق عليها كذلك اسم تافيلالت مما جعل الأستاذ العربي مزين يُعد أطروحة في ذلك،[1] وفي هذا الصدد يرى عدد من الدارسين أن تافيلالت تطلق على سجلماسة التاريخية مما أثار إشكالية حول العلاقة بين الاسمين، فكيف يمكن الفصل في هذه الإشكالية؟ وماهي الدلالات التي تحملها كلمة تافيلالت حتى يمكننا تحديد الفرق بينهما، وكذلك تحديد تاريخ هذه الأسماء حسب الأسبقية الزمنية والمجالات الجغرافية التي تشغلها.

أولاً: تافيلالت ودلالة الاسم

تأخذ الكلمات عدة معان ودلالات على المستوى اللغوي والاصطلاحي، بل قد تكون لها معان ودلالات مرتبطة بالرواية

الشفوية أو ببعض الأحداث والوقائع التي عرفتها مناطق أو مجالات يكون لها ارتباط مباشر بهذه الأسماء والكلمات، وتافيلالت لم تخرج عن هذا السياق لذلك نجد عدة تفسيرات لهذه الكلمة سواء من طرف الباحثين والمؤرخين المغاربة أو الأجانب، لكن قد نتوصل إلى أنهما يحملان الدلالة نفسها، وهو المجال الجغرافي لتافيلالت رغم اختلاف حدوده الجغرافية من فترة زمنية إلى أخرى، وأدى تصور كل باحث ومؤرخ على طول امتداد التاريخ الفيلالي الذي يمكن تأطيره من تأسيس سجلماسة وحتى التاريخ المعاصر لهذا المجال الشاسع، ويمكن أن نشير إلى بعض الباحثين الذين كتبوا عن تافيلالت أو بحثوا في تاريخ هذه المنطقة وقدموا إشارات مهمة في هذا المجال.

ولابد من الإشارة إلى؛ أن كلمة تافيلالت تستعمل للدلالة على مجالات سجلماسة، إلا أن هذا اللفظ "تافيلالت" أحدث عهد من سجلماسة كونها وليدة العصور الحديثة، وأوسع نطاق من سجلماسة، ذلك أن منطقة تافيلالت في مفهومها الواسع إحدى أهم الأقاليم المغربية التي نعتت باسم سجلماسة قديمًا، فقد ظلت الأجهزة الإدارية الرسمية توظفه في وثائقها إلى حين وصول العلويين إلى الحكم حيث سادت في بداية عهدهم ازدواجية استعمال "سجلماسة"، أو "تافيلالت" إلى غاية عهد الحسن الأول حيث تم الاقتصار فقط على اسم تافيلالت،[٢] وفي ذلك أشار الأستاذ حسن حافظي إلى أن كلمة تافيلالت تستعمل للدلالة على مجالات سجلماسة في بعض المصادر، لكن البعض حسب رأيه يرى أنها وليدة العصور الحديثة بحجة أن الحسن الوزان لم يستعمل الكلمة في كتابه "وصف إفريقيا" خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي،[٣] لكنه أورد إشارة أخرى توضح وجود المصطلح قبل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي من خلال تأكيده على استعمال ابن خلدون له خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أثناء حديثه عن مواطن أولاد حسين من عرب المعقل، لكن استعمال المصطلح لم يتم تداوله بكثرة إلا خلال العهد السعدي.[٤]

ولكن حسب الرواية الشفوية المحلية وهي المتداولة بشكل كبير، فإن مصطلح تافيلالت يرجع ظهوره إلى العصر الوسيط، وبالتأكيد خلال فترة قدوم الحسن بن القاسم القادم من ينبوع النخيل إلى تافيلالت أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ذلك أن لفظ تافيلالت اشتق من كلمة "أفيو" من فعل وفي يفي و"أوفيو" معناها أوفوا بصيغة أنتم في الأمر، وهذه الكلمة هي التي كان يقولها الشريف مولاي الحسن بن القاسم بعد استقراره في سجلماسة بعدما علمهم طرق ري جديدة وبالمقابل تعهد السكان بتأدية ربع الإنتاج في حالة نجاح فلاحتهم، لكن رواية أخرى تقول أنه علمهم تعبئة النخيل الذي كان إنتاجه ضعيف لكن سكان سجلماسة رفضوا بعد أن تحقق لهم ذلك إعطاء الشريف ما وعدوه به، فكان يقول لهم "أوفيو" أي أعطوني ما وعدتموني به فيجبونه "لالا" فسموا بـ " فيلالا" من كلمتي (أفيو + لالا) فتكون تسمية تافيلالت على هذا مشتقة من "فيلالا" خاصةً وأن إضافة تاء البداية وتاء النهاية تكون لإعطاء اسم المكان العربي صيغة بربرية.[٥]

لكن إشارة بعض الباحثين الأجانب إلى دلالة الاسم تعطي معاني أخرى جلها مرتبطة بالوضع الطبونيمي، أي أنها مشتقة من المكان، فحسب (F.Gendre) فإن كلمة تافيلالت هي الصيغة البربرية لكلمة "فيلال" وهي اسم منطقة في الجزيرة العربية، لكن استعمال هذه الكلمة شاع في فترة قدوم الهلاليين إلى المغرب الأقصى بفضل عرب الصباح الذين استقروا في منطقة تيزيمي والجرف بإقليم سجلماسة بعد أن رافقوا الهلاليين في طريقهم نحو الغرب.[٦] أما الباحثة جاك موني (Meunié D J) فقد أكدت أن كلمة تافيلالت هي تصغير لكلمة "افيلال"، أو "أوفيلال" التي تطلق على سلسلة جبلية صغيرة في مناطق سجلماسة على أعلى قمة بها (٧٨٥م)، توجد على بعد (٥٠) كلم جنوب جنوب شرق مدينة الريصاني، و(٤) كلم شمال غرب الطاوز،[٧] وأكد الأستاذ الحافظي أن جبل أفيلال من المواقع المأهولة قديما في مناطق سجلماسة لأن به بعض الآثار التي تشهد على استقرار الإنسان منذ فترة غابرة، وهي عبارة عن رسوم للعربات التي تجرها الخيول وبعض الكتابات من تيفناغ لغة التوارك،[٨] أما الأستاذ العربي مزين فقد أشار إلى أن تافيلالت مصطلح أمازيغي يعني "القدح" ويشير إلى منطقة تقارب وادي زيز وغريس.[٩]

فمن خلال ما سبق يمكن القول؛ إن دلالة الكلمة "تافيلالت" اتخذت معنيين الأول مرتبط ومستنتج من خلال التعامل الإنساني المتمثل في الوفاء بالعهد، وهو الرأي المتداول داخل الأوساط الفيلالية اليوم رغم أن الرواية الشفوية هي أساس هذا الرأي، أما الثاني فمرتبط بالمكان أي أنه يحمل دلالة مكانية سواء بشبه الجزيرة العربية وخاصةً ينبوع النخيل التي قدم العلويون منها، أو بجبل أفيلال المتواجد في المنطقة، لكن معظم الروايات أشارت إلى أن المصطلح ظهر في فترة متأخرة عن سجلماسة، وبالتالي فهذه الأخيرة كانت أسبق من حيث الاسم وعبرت كذلك عن المجال الجغرافي الذي شغلته هذه المدينة المؤسسة منذ ١٤٠هـ*

ثانيًا: تافيلالت المجال والإشعاع

لقد عرفت تافيلالت إشعاعًا كبيرًا عند بداية حكم الدولة العلوية كمنطقة لها الإشعاع نفسه الذي كان لسجلماسة لذلك يصعب في بعض الأحيان أن يتم فصل سجلماسة عن تافيلالت للارتباط الوثيق بين الكلمتين من حيث المنطلق، وتداخل المجال الجغرافي الذي ميزها عبر تاريخها الممتد من (١٤٠هـ) إلى اليوم، اللهم اعتبار سجلماسة كلمة تاريخية ارتبطت حاليًا بالموقع الأثري سجلماسة المعروف حاليًا بـ "المدينة العامرة" في حين مصطلح تافيلالت عرف نوعًا من الامتداد والتقلص حسب قوة أو ضعف السلطة المركزية طيلة العصر الوسيط والحديث بل وحسب قوة أو

ضعف كل سلطان على حدا، ولذلك يصعب على الباحثين تحديد المجال الجغرافي الذي شغلته تافيلالت بتدقيق خلال تاريخها الوسيط والحديث بل وبداية المعاصر، ونظرًا لغياب التحديد الإداري المفصل للأقاليم والمناطق خلال هذه الفترة التاريخية اللهم وجود بعض الإشارات العامة في بعض المصادر والمراجع التي تطرقت لتافيلالت أو سجلماسة، بل هناك مَنْ يربط بين سجلماسة وتافيلالت إلى حد التطابق المجالي بينهما، وهناك مَنْ يعتبر سجلماسة ضمن المجال الجغرافي لتافيلالت، وهناك مَنْ يعتبر العكس، ولعل هذا الاختلاف ناتج عن اختلاف التحديد الزمني للمجال الفيلالي أو السجلماسي، لكن ما تم الجزم فيه أن سجلماسة حسب المصادر والمراجع التاريخية أسبق زمنيًا من تافيلالت،[١٠] فالأستاذ عبد العزيز بن عبد الله يرى أن "تافيلالت منطقة الواحات (حيث توجد سجلماسة المؤسسة سنة ١٤٠هـ /٧٥٨م) تسمى بالبربرية تافيلالت، وقد سماها المؤرخون العرب . تافلالة . أو . فيلالة . وهي التي استقر بها جد العلويين أو الشرفاء الفيلاليين، الشريف الماجد حسن بن القاسم".[١١] فمن خلال هذا النص يتضح أن تافيلالت هي منطقة الواحات ولعل المقصود بها واحة كير وواحة زيز وغريس ودرعة، وبالتالي فالمجال الفيلالي يضم حوض كير وزيز وغريس ودرعة، ودليل ذلك أنه في سياق حديثه عن الشرفاء السعديين قال: "فقد استقروا في سهول درعة وتافيلالت، هي أحد أبواب الصحراء ومسقط الأسرة العلوية الشريفة.[١٢] وهكذا؛ نجده مزج بين درعة وتافيلالت ومعظم الدراسات الوسيطية تؤكد تبعية درعة لسجلماسة إداريًا ومجاليًا.[١٣]

وفي العهد السعدي نجد الحدود الشمالية لتافيلالت تصل إلى حدود الزاوية الحمزاوية أو العياشية، التي تنتمي إلى قبيلة آيت عياش من قبائل البربر التي تتاخم الصحراء من أحواز سجلماسة،[١٤] وعلى مستوى الحدود الشرقية توجد إشارة لها في رسالة من محمد الشيخ السعدي لأبي القاسم يقول فيها: "أهل فجيج أقرب لي من كل أحد، هم إخواني ولا يامن قلبي إلا وسط أهل فجيج وفيلالة هم أهل بلادنا ونحن وإياهم كعضو واحد وإخواننا"،[١٥] ومن خلال هذه الرسالة يتضح أن أهل فجيج وتافيلالت شكلوا مجالاً واحدًا حسب توضيح السلطان السعدي محمد الشيخ. وحسب الأستاذ بنعبد الله عبد العزيز نجد أن المصطلح استعمل للدلالة على المجال المغربي بكامله وذلك من خلال إشارته إلى ذلك بالقول، وكان مؤسس الدولة العلوية المولى الرشيد يعرف بملك تافيلالت عند المؤرخين الغربيين"،[١٦] والمؤكد تاريخًا أن المولى الرشيد هو السلطان العلوي الذي تمكن من توحيد المغرب بعد دخوله مدينة فاس، وعمل على ترسيخ قواعد الدولة العلوية، هذا ما جعل إشعاع تافيلالت يطلق على المغرب بصفة عامة، ومنذ عهد المولى الرشيد وإلى بداية حكم السلطان المولى الحسن الأول كانت المنطقة تُعرف بالاسمين معًا سجلماسة وتافيلالت، لكن مع حكم المولى الحسن الأول أقتصر الاسم فقط على "تافيلالت"،[١٧] ليتسع المجال بعد ذلك بشكل أكبر، فمن خلال ما تم استنتاجه من الأرشيف الفرنسي على وجه التحديد، وخاصةً الكتابات العسكرية التي كانت تؤرخ للحملات العسكرية الفرنسية على المغرب قبل توقيع معاهدة الحماية، وبداية من سنة ١٩٠٠ بعدما بدأت فرنسا تحتل عددًا من المناطق المغربية في الشرق، حيث اعتبرت معظم هذه الكتابات أن احتلال منطقة الصفراء والتوجه نحو فكيك وعين الشعير بداية التدخل العسكري الفرنسي في تافيلالت،[١٨] ولعل هذا ما يوضح المجال الكبير الذي شغلته تافيلالت من الحدود الصحراوية أو الصحراء الكبرى إلى واحة توات امتدادًا إلى فكيك وعين الصفراء، وصولاً إلى الزاوية العياشية، هذا في الوقت الذي اعتبر المختار السوسي مدينة تنجداد من بسيط تافيلالت وهو يصف رحلته الوزارية فقال: "بكرنا إلى بسيط تافيلالت فنزلت في تنجداد حيث كنت قضيت تسعة أشهر في المنفى"،[١٩] ويفهم من كلام المختار السوسي أن بسيط تافيلالت يوجد قبل الوصول إلى مدينة تنجداد وكان هذا التحديد مع بداية الاستقلال.

فمن خلال ما سبق يتضح؛ أن المجال الفيلالي منذ ظهور المصطلح عَرف نوعًا من الامتداد ليحدد مجالاً اكبر يطلق عليه تافيلالت الكبرى أو تافيلالت التاريخية ويقصد بها أقصى المجال الجغرافي الذي شغلته تافيلالت في مراحل توسعها الكبير. لكن ما المقصود بتافيلالت اليوم؟ تعرف دلالة مصطلح تافيلالت من الناحية المجالية نوعًا من التغيير، وذلك مرتبط بالامتداد المجالي ودلالة المصطلح، فقد تعني تافيلالت اليوم عند سكان الشمال المغربي منطقة الرشيدية في إطار حدودها الإدارية، وتعني عند سكان الرشيدية كل من منطقة أرفود والريصاني بمجالاتها المنتشرة، لكن تافيلالت عند سكان أرفود تعني مدينة الريصاني بقصورها المنتشرة شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، وكذا بمدينة الريصاني، فتافيلالت تعني قصور الجماعة القروية للسفالات، وبذلك يمكن القول إن تافيلالت في الوقت الراهن تعني المناطق الجنوبية لمدينة الريصاني حسب رأي غالبية سكان المدينة، لكن المفهوم يتغير لدي سكان مدينة أرفود، وكذلك لدى سكان الرشيدية امتداد إلى المناطق الشمالية من المغرب.

خاتمة

لقد ساهمت الدراسة الطبونمية في تقديم عدد من التوضيحات بالنسبة لعدد من المصطلحات والمفاهيم باعتبارها تعتمد الدراسة والبحث انطلاقًا من الجزء البسيط وصولاً إلى المجال الكبير، وبذلك فتافيلالت من حيث الدلالة تحمل معان لغوية، وأخرى اصطلاحية، إلى جانب بعض الدلالات المرتبطة بالرواية الشفوية والتي تشير إلى مرحلة تاريخية مهمة في تاريخ تافيلالت، أما من حيث المجال الجغرافي فقد عرف نوعًا من الامتداد في مراحل تاريخية عرفت المنطقة فيها إشعاعًا اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا، إلى جانب قوة أو ضعف السلطة المتحكمة في

المدينة، مما جعل المجال الجغرافي لهذه المنطقة يتغير حسب السلط الحاكمة لها، والمراحل التاريخية. هذا ما يجعل الباحث يميز اليوم بين تافيلالت الحالية . في الوقت الراهن . وتافيلالت التاريخية أو ما يُعرف بتافيلالت الكبرى.

الملاحق:

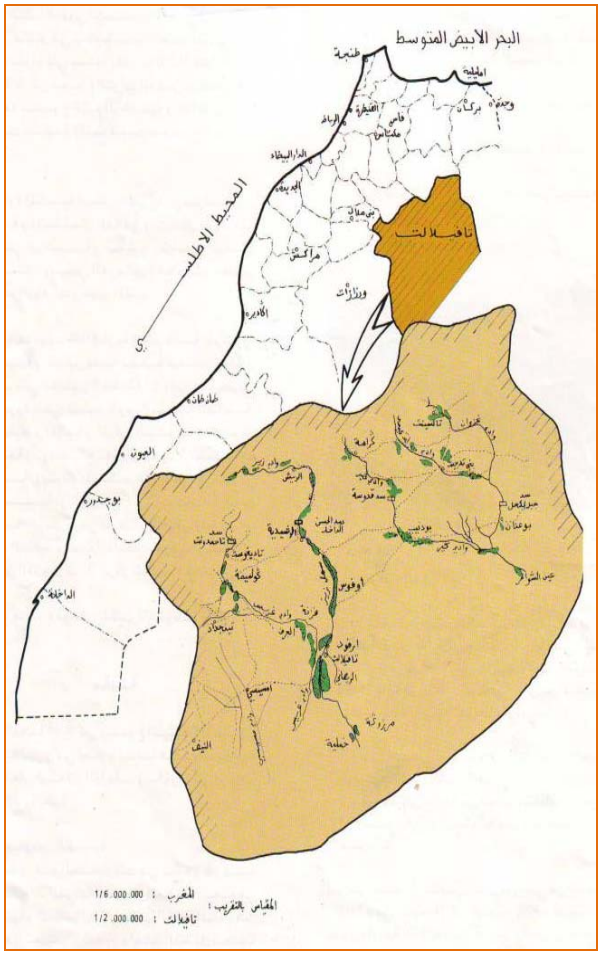

الهَوامِش:

(1) larbi Mezzine : le Tafilalt contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe , publications de la faculté des lettres et des sciences humaines – rabat, 1987 1

(٢) علي العلمي: **قصور تافيلالت ما بين التدهور ومحاولات الإنقاذ**، الشبكة العنكبوتية، كلمة "قصور تافيلالت".

(٣) **سجلماسة وإقليمها**، مطبعة وزارة الأوقاف ، طبعة أولى، ١٩٩٧، ص٨٩.

(٤) المرجع نفسه. وابن خلدون: **كتاب العبر**، دار الفكر للتوزيع والنشر، بيروت ١٩٨١، ج ٦/ ص ٧٧-٨٧-٨٩.

(٥) لتفاصيل هذه الرواية يرجع إلى سجلماسة وإقليمها، للأستاذ حسن حافظي، م ، س ، ص ٨٩-٩٠، وقد اتفق معه أيضًا لحسن تاوشخت في إسناد هذه الرواية، انظر قصور تافيلالت ما بين التدهور ومحاولات الإنقاذ، علي العلمي، الشبكة العنكبوتية "قصور تافيلالت".

(6) F . Gendre. Le Tafilalete, R.G.M3-4éme trim. Mai – Aout.1942.pp :45-57

(٧) حسن حافظي: سجلماسة ...م ، س، ص ٩٠-٩١. وأيضًا:

Meunié DJ : Abbar, cité rayale du Tafilalete . H--,1959.pp9-67.

(٨) حسن حافظي: سجلماسة ...، م ، س ، ص ٩١

(٩) علي العلمي: قصور تافيلالت ..، م ، س.

*. لمعرفة المزيد من تاريخ هذه المدينة يرجع إلى **مدينة سجلماسة**، محمد امراني علوي، مجلة الرشيدة، العدد الأول، ٢٠١٢، ص ٨١.

(١٠) يمكن الاطلاع على كتب التاريخ العام والدراسات التي أنجزت حول سجلماسة أو تافيلالت.

(١١) **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**، معلمة المدن والقبائل مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة ١٩٧٧، ص ١٢٨.

(١٢) نفسه، ص١٢٩.

(١٣) محمد امراني علوي: **تافيلالت، التاريخ، الإنسان، المجال**، مطبعة الودغيريون، ٢٠١١، ص٩٢.

(١٤) عبد الله بنصر العلوي: **أبو سالم العياشي المتصوف والأديب**، مطبوعات وزارة الأوقاف، ١٩٩٨، ص ٥٩، والمسناوي: جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر، مخطوط، خ، ع، رقم ٥٧٦ج، ١٠.

(١٥) بنعلي محمد بوزيان: **واحة فكيك، تاريخ وأعلام**، طبعة أولى، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٧، ص٤٤.

(١٦) عبد العزيز بنعبد الله: الموسوعة ...، م ، س ، ص ١٩٢.

(١٧) على العلمي : م، س .

(١٨) يمكن الاطلاع على الكتابات الفرنسية التي تؤرخ لبداية الحملات العسكرية على المغرب، انطلاقًا من الجزائر، وهكذا يمكن الاطلاع على: . مولاي علي الشريف الزكي العلوي: **نسيم الزهر المرعي في مناقب مولاي احمد بن محمد بن الحسن السبعي**: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، طبعة أولى، ٢٠١١. وأيضًا:

Journal des Marches et opérations, de le colonne Principale – colonne levé- la première compagne du Hout-Guir du 23 Avril ou 24 Mai 1908. Lyautey: vers le Maroc. lettres du sud-oranais,1903-1906, librairie Armand colin,103 Boulevard saint-Michel,Pariis1937. historique du Bataillon, 8e régiment de Tirailleurs Tunisiens,3e Bataillon de March, de puis la Mobilisation- 2 Aout 1914- Jusqu'a la signature de la Paix -28juin1919-.

(١٩) **العلامة المختار السوسي: وزير للأوقاف (١٩٥٦- ١٩٥٧)**، جريدة التجديد، العدد (١١٥٦)، ٢٠ - ٢٢ مايو ٢٠٠٥، ص٧.